

فئة الوراقين في المغرب الأوسط

أ.ة.ساحلي آسيا

جامعة سكيكدة

من المؤكد أنَّ مهنة الوراقة في الحضارة الإسلامية، قد لعبت دورا بارزا في حفظ التراث الفكري الإسلامي وانتقاله عبر مختلف الأقطار الإسلامية المعروفة وقت ذاك. في مقابل ذلك نجد أن مجموع المؤلفات المخصصة لهذه الفئة قليلة جدا، بل تكاد تعدّ على أصابع اليد الواحدة، وما هو موجود عبارة عن نتف متناثرة في ثنايا المصادر التاريخية وبشكل خاص في كتب التراجم والطبقات، على غرار كتاب البغدادى (ت 429هـ/ 1037م) الموسوم بـ " تاريخ بغداد " و "معجم الأدباء " لياقوت الحموي (ت 626هـ/ 1228م).

هذا وقد أشار البحّاث المرحوم محمد المنوني إلى وجود ثلاث مؤلفات مشرقية ضائعة أرخت لهذه الفئة (المنوني، م. 1991: 6)، على أن كتاب الفهرست لابن النديم (ت 380هـ/ 990م) يعتبر من المؤلفات الأبرز التي ذكرت مجموعة من هؤلاء النساخ، أين خصص لهم الفن الأول من المقامة الأولى من كتابه وأدرجها تحت "عنوان في وصف لغات الأمم من العرب والعجم ونعوت أقلامها وأنواع خطوطها وأشكال كتابتها". (ابن النديم، م. 2007: 49-109).

وفي ذات السياق نجد عالّمين أندلسيين أفردا لهذه الصنعة مؤلفين مستقلّين، واحد للقللوسي أبو بكر بن محمد جاء تحت عنوان "تحف الخواص في طرف الخواص (في صنعة الأمدّة والأصباغ والأذهان)". (القللوسي، أ. 2007) وكتاب "التيسير في صناعة التفسير" لبكر بن إبراهيم الاشبيلي (ت 628هـ / 1230م)، وعدّها من "... الصنعة الشريفة والبعيدة

الظريفة التي بوأها الله أعلى الرتب وخصها بأن تكون حجابا لكتابة المنتخب " (الاشبيلي، ب. 1999: 19). ولم يفوت المؤرخ ابن خلدون (ت 808هـ / 1405م) الحديث عنها، بل أفرد لها هو أيضا في كتابه العمران الفصل الحادي والثلاثين من الباب الخامس بعنوان " في صناعة الوراقة "، وقد اعتبر "صناعة الوراقين المعانين للانتساخ والتصحيح والتجليد وسائر الأمور الكتبية والدواوين". (ابن خلدون، ع. 2004: 403-405).

على أن الدراسات التاريخية الحديثة، قد أخذت تهتم أكثر بهذا الجانب المهم من حركية الفكر الإسلامي في محاولة منها إمطة اللثام عن مختلف فئات النساخ، التي يحفل بهم تراث الغرب الإسلامي ناهيك عن المشرق. من بين الدراسات المشرقية، دراسة علي إبراهيم النملة "الوراقة وأشهر أعلام الوراقين". (النملة، ع. 1995)، ودراسة عابد سليمان المشوخي "أخلاقيات مهنة الوراقة في الحضارة الإسلامية" (المشوخي، ع. 2003). على أن الدراسة الأشمل، في هذا الموضوع دراسة حبيب زيات الموسومة بـ "الورق والوراقون في الإسلام".

كما حضي موضوع الوراقة الأندلسية بقسط معتبر من الدراسات المهمة منها، "الوراقة والوراقون في الأندلس" لسامية مصطفى مسعد. (مصطفى مسعد، س. 2000) ودراسة فريدة الأنصاري الموسومة بـ "الوراقون الأندلسيون". (الأنصاري، ف. 2009). وتعتبر دراسة محمد المنوني الموسومة بـ " تاريخ الوراقة المغربية"، من أهم دراسات التي خصصت لمنطقة المغرب الأقصى، وقد أتبعه الكنساني بدراسة أخرى بعنوان "من تاريخ الوراقة بمنطقة السوس". (الكنساني، أ. 1998).

في هذا المقام، سوف نحاول تسليط الضوء على منطقة المغرب الأوسط، من أجل توضيح المسار العام الذي سارت عليه هذه الصنعة خلال الفترة الوسيطة، حيث ارتفعت وتيرة الإنتاج الفكري واكبه بروز مجموعة من العلماء المبرزين في مختلف ضروب العلم.

1. تنشيط حركة النسخ بالتزامن مع انتشار استخدام الورق:

من دون أدنى شك أن عملية النسخ في المنطقة، قد تسارعت وتيرة إنتاجها بالتزامن مع الانتشار الواسع للورق في جميع الأقطار الإسلامية وسهولة الحصول عليه. (الجبوري، ي. 1994: 274-284)، وبصفة خاصة في شبه الجزيرة الأيبيرية العدوّة الأندلسية، أين اشتهر الورق الشاطبي بجودته العالية، فهذه المدينة على حسب وصف الإدريسي (ت 560هـ/ 1164م) يؤكد على أنها كان "... يعمل بها الكاغد ما لا يوجد له نظير بمعمور الأرض ويعم المشارق والمغرب". (الإدريسي، ع. 2010: 556/2).

في مقابل ذلك نلاحظ تأخر العدوّة المغربية في إنتاج الورق، وبذلك تصبح مدينة شاطبة الممول الأساسي لهذه الأقطار، فمنطقة تيهرت الرسمية لا تشير المصادر الاباضية إلى وجود مناطق للتصنيع فيها أو حتى المناطق التابعة لها في تلك الفترة. (بحاز، إ. 1985: 205)، وترجع الباحثة سحر السيد عبد العزيز سالم السبب الأساسي الذي أدى إلى تدهور صناعة الورق، في المناطق الشرقية من المغرب الإسلامي خاصة بعد الهجرة الهلالية، قلة إنتاج القطن والكتان وعدم توفر الخبرة الفنية إضافة إلى تفضيل سكان هذه المناطق إلى استخدام الرق. (سحر السيد، ع. 1995: 346-348).

لكن مع نهاية الفترة الوسيطة وفي حدود القرن 9هـ/ 15م، سوف نلمس انحصار الورق الإسلامي المصنع في كل من فاس والعدوّة الأندلسية

واقصره فقط على تزويد المناطق المحلية القريبة من مراكز التصنيع، حتى أصبح لا يصل إلى باقي الأقطار المغاربية من طرابلس إلى منطقة تلمسان وحتى الصحاري، ناهيك عن المشرقية التي كان يصلها على الأقل في حدود القرن 6هـ/ 12م زمن الإدريسي، مبدئياً، هذا ما يستشف من النازلة الواردة على الشيخ الفقيه التلمساني ابن مرزوق (ت842هـ/ 1438م) (الونشريسي:أ. 1981: 1/ 85-104)، يستفتى في جواز استخدام الكاغد الرومي، فعلى رأى البعض أن فيه نجاسة لأن الروم يصنعونه بأيديهم المبلولة النجسة، مستندين إلى النصوص الواردة في المدونة. وفي هذا الخصوص أَلَفَ الفقيه ابن مرزوق رسالته الموسومة بـ "الدليل المومي في ترجيح طهارة الكاغد الرومي". (ابن مريم، م. 2010: 285-286)، وفيه أفتى الفقيه بجواز استخدامه لعدم وجود بديل آخر يغني عن استخدام هذا الورق الدخيل، الذي لا يتماشى مع الموروث الديني أدى في النهاية إلى إثارة إشكال حاد في المنطقة استوجب تدخل الفقيه.

1- المعالم البارزة لعملية النسخ في منطقة بجاية وقسنطينة:

أ- نساخ منطقة بجاية وأهم منتسختهم

شهدت مدينة بجاية فترة ما بعد القرن 6هـ / 12م توافد أعداد كبيرة من الجالية الأندلسية بسبب الظروف التاريخية الصعبة التي كانت تمر بها المنطقة، حيث أخذ المدّ المسيحي يأتي على المناطق الثغرية ويكتسح كبريات مدنها، حدث ذلك بعد انكسار شوكة الموحيدين في معركة العقاب 609هـ/ 1212م، وانكماش سلطتهم على العدو الأندلسية، وما تبعه من هزائم متلاحقة. ونتيجة لذلك شهدت العدو المغربية وعلى وجه الخصوص حواضر الدولة الحفصية استقرار أعداد هائلة منهم، الأمر الذي سوف يكون له التأثير الايجابي على صناعة الوراقة في منطقة بجاية، هذا إذا وضعنا

في الحسبان، أن "أهل الأندلس أحذق الناس في الوراقة"، على حسب الشهادة التي أدلى بها الجغرافي المقدسي (ت 387هـ / 997م) في كتابه أحسن التقاسيم. (المقديسي، ش. 1909: 239)، هذا إلى جانب اشتهارهم بولعهم الشديد في اقتناء الكتب ونسخها، وكان لذلك الأثر البارز في ازدهار الوراقة، وبروز عدد كبير من النساخ المبرزين المتقنين. (مصطفى مسعد، س. 2000: 49-55). وهو الأمر الذي نبّه عليه ابن خلدون بقوله "... الرسوم بالمشرق والأندلس مفيدة الطرق واضحة المسالك ولهذا نجد الدواوين المنتسخة لذلك العهد في غاية من الإتقان والإحكام وأهل الآفاق يتناقلونها إلى الآن ويشدون عليها يد الضمانة". (ابن خلدون، ع. 2004: 404). ومن الشخصيات الأندلسية التي وفدت إلى بجاية وعرفت بحسن خطها وجودته نذكر منهم .

- أبو العباس الصدي الشاطبي (ت 674هـ / 1275م): ذكر له كتاب في مرسوم الخط قال عنه الغبريني "كتاب حسن كثير الفائدة". (الغبريني، أ. 1981: 108).

- أبو عثمان سعيد القرشي مستوطن بجاية (ت 680هـ / 1281م): كان "فصيح القلم واللسان بارع الخط". (الغبريني، أ. 1981: 204)

تفيدنا بعض كتب التراجم والطبقات، بمجموعة معتبرة من الشخصيات البجائية التي عرفت ببراعة الخط وحسن الضبط، يأتي في مقدمتها كتاب سليل المنطقة وقاضيه أبو العباس الغبريني (ت 704هـ / 1304م). وفيما يلي جدول لأبرز هؤلاء الأعلام وصفة خطوطهم.

الشخصية	تنقلاته	نوعية الخط وجودته	المصدر
الفضل بن محمد بن علي البجائي أشيري الأصل (ت 598هـ/ 1201م)	دخل الأندلس	رائق الخط	الذيل والتكملة، السفر الثامن/ج1، ص260
أبو عبد الله محمد بن محمد الحشني البجائي (ت بعد 603هـ/ 1206م)	بجاية	له خط بارع	عنوان الدراية، ص 219
أبو عبد الله محمد بن ميمون القلعي (ت 673هـ/ 1274م)	الجزائر - القلعة	بارع الخط	عنوان الدراية، ص94
أبو الحكم مروان بن عمار بن يحي (ق7هـ/ 13م)	بجاية - الأندلس	حسن الخط جيد الضبط	عنوان الدراية، ص 269
أبو عبد الله محمد بن أحمد الإدريسي المعروف بالجزائري (ق7هـ/ 13م)	بجاية	مليح الكتابة حسن الوراقة في البطاقة	عنوان الدراية، ص 287
أبو عبد الله محمد بن إبراهيم الوغيلسي (ق7هـ/ 13م)	بجاية	بارع الخط	عنوان الدراية، ص241
أبو عبد الله بن يحي بن عبد السلام الدلسي (ق7هـ/ 13م)	دلس - بجاية	له الخط البارع	عنوان الدراية، ص 294
أبو عبد الله محمد بن أحمد الاريسي (ق7هـ/ 13م)	بجاية	غاية الجودة في الخط المشرقي	عنوان الدراية، ص217
أبو علي أحمد بن منصور الزواوي البجائي (ت 731هـ / 1330م)	بجاية - رحل إلى الأندلس والمشرق	له خط بارع	بغية الرواد، ص132

أبو عبد الله محمد بن يحيى المسفر (ت 744هـ / 1343م)	بجاية - قسنطينة	له خط رائع	أنس الفقير، ص54
---	--------------------	------------	--------------------

يسمح لنا الجدول أعلاه، التعرف على الأقل على عشر شخصيات بجائية عرفت بجمال خطها، لكننا لا نستطيع بأي حال من الأحوال ترتيبهم ضمن فئة النسخ. الأمر الذي يضعنا أمام صورة غير واضحة ويفسح المجال واسعا أمام مجموعة من الفرضيات التي تبقى تفتقر إلى الأدلة التاريخية الملموسة. لكن بالعودة مرة أخرى إلى كتب التراجم، وفي محاولة منا التقاط بعض الإشارات الدقيقة، وعلى قلتها أمكننا الكشف على سبعة شخصيات بجائية التي جمعت بين النسخ وحسن الخط، وتجدر الإشارة هنا إلى أن من ضمن هؤلاء النسخ هناك امرأة :

- عائشة بنت أبو طاهر عمارة بن يحيى بن عمارة الشريف (ت بعد 585هـ/ 1189م)، معاصرة للشاعر القسنطيني ابن الفكون أبو علي حسن (ت 602هـ/ 1205م) وكانت بينهما مكانة، أشاد الغبريني بحسن خطها وذكر لها نسخة من كتاب يتيمة الدهر للثعالبي في ثمانية عشرة جزءا، كما ذيلت نسختها بكتابة أشعار أبيها، وقد اعتبرها الغبريني من أجود النسخ بل ذهب إلى حد التأكيد على أنها النسخة المعتمدة لباقي نسخ الكتاب التي يقع التصحيح منها. يظهر أن الغبريني قد اطلع عليها في الخزانة السلطانية ببجاية، كما أشار إلى وجود نسخ أخرى لهذا الكتاب مختلفة الأحجام أثناء زيارته لحاضرة قسنطينة عند إمام جامع قصبته. (الغبريني، أ. 1981: 79)

- التاريخي بكر بن حماد الصنهاجي (ت 628هـ/ 1230م): أكد لنا ابن عبد الملك المراكشي (ت 703 هـ / 1303م)، على وجود الكثير من المؤلفات التي كان ينسخها بخطه المتقن، ما جعل الناس يتنافسون على اقتناء متسخراته أو تلك التي بمعاناته ويجعلونها أصلا يعتمدون عليه (ابن عبد الملك، م. 1985 : 324)، وفي هذا دليل قاطع على علو كعبه ليس في هذا

المجال فقط، بل حتى في الفنون الأخرى التي كان يشتغل بها (عمارة، ع. 2004: 27). وان كانت إشارة ابن عبد الملك في غاية الأهمية، إلا أنه لا يزودنا بعناوين المؤلفات التي نسخها ابن حماد رغم كثرتها.

- أبو محمد بن عبد الحق بن ربيع بن أحمد البجائي (ت 675هـ/ 1276م): اعتبر ابن مقله (ت 328هـ/ 939م) زمانه، من أشهر الخطاطين في العصر العباسي (ابن النديم، م. 2007: 76-77/ الجبوري، ي. 1994: 201-228)، وعلى حد وصف الغبريني فان ابن عبد الحق كان "مجيد لكل أنواع الخط المشرقي والمغربى"، على الرغم من أنه لا يكشف لنا عن أسماء المؤلفات التي قام هذا الأخير بنسخها، إلا أن قوله "ومن أبدع حاله في خطه إذا بدأ بنوع حكم عليه إلى آخره حتى لا يوجد فيه حرف واحد من غيره" (الغبريني، أ. 1981: 86). تتقف دليلا قاطعا على معاينة الغبريني لمتنسخاته.

- أبو القاسم عبد الرحمن بن محمد بن أبي بكر بن السطاح الجزائري (ت 629هـ/ 1231م): كان بارع الخط حسن الضبط، نسخ كتاب "الأنوار في الجمع بين المنتقى والاستذكار" (الغبريني، أ. 1981: 287).

- أبو محمد جعفر بن أمية (ق 7هـ/ 13م): من الموصوفين عند الغبريني بابن مقله زمانه أيضا في براعة الخط وجودته وحسن الضبط، يذكر قاضي بجاية بكل إعجاب تلك المؤلفات التي وقف عليها، وهي تحوي طرر وتقييدات وتنبيهات بخطه في مختلف الفنون منها ما هو في كتب الحكمة، اللغة العربية، وأغلب كتب التفسير التي لا يوجد واحد منها إلا عليه تنبيه أو شرح أو تعليق أو تقييد كلها دالة على حيازته قصب السبق في براعة الخط، من جهة أخرى يؤكد الغبريني على حقيقة أخرى مفادها أن متنسخاته أعجب من ذلك فزيادة على جودة الخط تميزت أيضا بالدقة

المتناهية حتى لا يكاد يوجد فيه غلط بوجه (الغبريني، أ. 1981: 190)، من دون أدنى شك أن هذه الشهادة التي أدلى بها صاحب عنوان الدراية لها قيمتها العالية، وهو الموصوف عند النباهي (أواخر ق 8هـ/ 12م) بكونه كان " في حكمه شديدا مهيبا ذا معرفة بأصول الفقه وحفظ لفروعه وقيام على النوازل وتحقيق للمسائل ". (النباهي، ع. 2006: 114) .

- أبو العباس حسن بن أبي بكر بن شعبان (ق7هـ/ 13م): يذكر لنا الغبريني على أنه عاين الكثير من متسخاته في الحكمة بخطه البارع، إضافة إلى التقييدات والتطريزات والتنبيهات في غاية الإتقان والدقة. (الغبريني، أ. 1981: 187).

- أبو مهدي عيسى بن أبي العباس أحمد الغبريني (ت 782هـ/ 1370م): من متسخاته شرح رسالة ابن أبي زيد القيرواني (ت 386هـ/ 996م) لابن قنفذ القسنطيني (ت 810هـ/ 1407م) في أربعة أسفار، اطلع عليها مؤلفها ابن قنفذ بتونس وهي محفوظة بمرفع الكتب بالقبة، أهديت للسلطان الحفصي المتوكل على الله أبو فارس عزوز (796-837هـ/ 1393-1433 م). (ابن قنفذ، أ. دت: 197).

2- عملية النسخ داخل الحلقة

لا تسعفنا كتب التراجم والطبقات بتفاصيل ضافية حول صناعة الوراقة في المنطقة، بما فيها مكان النسخ، طريقة النسخ ناهيك عن أجرة الناسخ، لكن من المؤكد أن فئة طلبة الحلقة في بجاية كانوا يقيدون الفوائد والزوائد التي كانوا يسمعونها من شيوخهم على نسخهم الخاصة، الأمر الذي يؤكد امتلاك الطلبة لنسخ من المؤلفات التي كانوا يتدارسونها داخل الحلقة. وهو ما تفيدنا به طرق انتقال المعرفة في التراث الإسلامي المعروفة، (القاضي عياض، م. 1970 : 69-107). والتي تحفل بها كتب برامج

ومشيخات الغرب الإسلامي، منها على وجه الخصوص طريقة القراءة، المناولة، الإملاء (ساحلي، أ. 2009 : 138-142). وعلى هذا يمكن تمييز على الأقل طريقتين أساسيتين: التقييد، الإملاء.

أ- التقييد

يستشف من الترجمة التي خصصها الغبريني للشيخ أبي فارس عبد العزيز بن عمر بن مخلوف (ت 686هـ / 1287م)، أن حلقة هذا الأخير التي كان يعقدها بمسجده الكائن بعين الجزري أو بالجامع الأعظم في بجاية، قيد عليه الطلبة الكثير واستكملوا التقييد على الجلاب (ت 378هـ / 988م) كل طالب على حسب قوته ومنهم أيضا من قيد على موطأ الإمام مالك (ت 179هـ / 795م). (الغبريني، أ. 1981: 93-94). وفي ذات السياق، يؤكد لنا ابن قنفذ أن مجلس الشيخ الفقيه أبي عمران العبدوسي (ت 676هـ / 1277م) بفاس كان يحضره حفاظ المدونة وتحضر من نسخها بيد الطلبة ما يقارب من الأربعين نسخة. (ابن قنفذ، أ. 1965: 25).

وتجدر الإشارة هنا، إلى أن مسألة التقييد التي كان يقوم بها بعض الطلبة في الحلقة، قد أثارت نقاشا فقهيا أدى إلى إصدار بعض العلماء فتوى، مفادها تأديب من يفتي بالتقييد. ومن الأسباب الدافعة إلى مثل هذه العقوبة التعزيرية، كون بعض هذه التقاييد التي كتبها الطلبة زمن قراءتهم على شيوخهم، قد نسبت لهؤلاء الشيوخ وهي ليست لهم، لذلك أعتبر التقييد يهدي ولا يعتمد عليه. (ابن مريم، م. 2010 : 388).

ب- مجالس الإملاء

انتشر هذا النوع في التراث الإسلامي، وهو ما بات يعرف بالأُمالي من الإملاء، "وهو أن يقعد عالم وحوله تلامذته بالمحابر والقراطيس فيتكلم العالم بما فتح الله عليه من العلم ويكتبه التلامذة فيصير كتابا"، اشتهر من

هذا الصنف أمالي ثعلب، أمالي الزجاج، أمالي القالي ... (زيات، ح. 1992: 10-13).

هناك إشارة من الغبريني تؤكد لنا الشيخ أبي محمد عطية الله بن منصور الزواوي اليراسني (ق7هـ/ 13م)، أملى كتابا غريبا في مجلسه لكن من دون أن يعطينا أية تفاصيل حول عنوان هذا الكتاب، ناهيك عن طريقة الإملاء، ومجمل ما ذكره أنه كان في حيازة بعض الطلبة سمع به الشيخ فأرسل في طلبه للنسخ فلم يستجب له، فأرسل إليه مرة أخرى على سبيل الإعارة لليلة واحدة فكان له ذلك، بل أن الشيخ حفظه في ليلته ثم أملاه على طلبته. (الغبريني، أ. 1981: 141).

كما يستفاد من هذه الإشارة، أن نوادر الكتب كان بعض مالكيها يضي بها عن النسخ، إما مخافة تلفها أو للتفاضل بها بين الأقران. وهي تؤكد من جهة أخرى تداول الكتب في الأوساط العلمية البجائية بطريق الإعارة. وفي ذات السياق، يذكر ابن قنفذ في أنسه، على أن الشيخ أبو عبد الله بن المسفر البجائي (ت 744هـ/ 1343م)، كان له إملاء عجيب على بعض مختصر ابن الحاجب في الفقه. (ابن قنفذ، أ. 1965: 54).

3- المعالم البارزة لعملية النسخ في منطقة قسنطينة

بخصوص منطقة قسنطينة، التي شهدت حركة علمية لا تقل شأنًا عن نظيرتها من الحواضر الحفصية الأخرى. (فيلاي، ع. 2002: 90-138)، لا نستبعد أن تكون حركة النسخ بها نشطة، خصوصا إذا وضعنا في الحسبان امتلاك هذه المدينة لمكتبة بجامع قصبته، ناهيك عن وجود مكتبات خاصة، التي كانت تحوزها الأسر القسنطينية. لكن شحّ المادة الخبرية، جعل من إمكانية تتبع مسار حركة النسخ بها واستخراج أسماء بعض النساخ أمرا صعبا للغاية.

ما يمكن تأكيده في هذا السياق، أن هناك مجموعة من الشخصيات القسنطينية التي عرفت بحسن خطها، كانت قد تولت وظيفة الكتابة. (ابن قنفذ، أ. دت: 178-179). ولا يغيب عنا، أنه من الشروط الأساسية الواجب توفرها من أجل الانتظام في سلك الكتاب، توفر شرط جودة الخط. (ابن خلدون، ع. 2004 : 238-240).

يظهر أن حسن بن علي القسنطيني (ت 750 هـ/ 1349 م)، كان يحوز على نسخة من رسالة ابن أبي زيد القيرواني، بقرأة ابنه ابن قنفذ القسنطيني على شيخه الولي أبي عبد الله محمد الصفار، حيث كان يستعين بها الوالد في مقابلة وتصحيح الكتب. (ابن قنفذ، أ. 1965: 45). وفي هذا إشارة واضحة على أن والد ابن قنفذ كان يشتغل بالتأليف والنسخ، التصحيح والمقابلة.

4- المعالم البارزة لعملية النسخ في منطقة تلمسان

تعتبر مدينة تلمسان من أبرز الحواضر العلمية في منطقة الغرب الإسلامي الوسيط، فهي "قاعدة المغرب ودار مملكة زناتة ومحل العلماء والمحدثين والصلحاء" (يحيى بن خلدون، ي. 1980: 91)، نفقت بها سوق العلم وغصت حلقات الشيوخ بالطلبة في فنون شتى من العلوم النقلية والعقلية، الأمر الذي سوف نجد له الأثر الإيجابي على حركة النسخ.

أ- حيابة الكتاب في الوسط العلمي التلمساني.

ليس جديدا القول أن حاضرة الزيانيين التي كانت تحفل بعدد كبير من العلماء المبرزين في فنون شتى، امتلاكهم لمكتبات خاصة ضخمة ومتنوعة، لتأكيد ذلك نورد نموذجين بارزين:

أولهما، مكتبة الفقيه أبي عبد الله الشريف (ت 771 هـ/ 1369 م)، التي كان يستعين بها في التدريس والتأليف، ذكر عنه ابن مريم (ت

بعد: 1014 هـ / 1605م) دخول أحد أصحابه عليه، فوجده قد بسط نحو سبعين كتابا يطالعها بين يديه. (ابن مريم، م. 2010: 247). وثانيهما، مكتبة الشيخ أبي عبد الله محمد المقرئ جدّ صاحب نفح الطيب (ت 1041 هـ / 1631م)، أشار إلى أنه ورثها عن أسلافه آل المقرئ. (المقرئ، أ. 1988: 206/5).

من دون أدنى شك، أن وجود هذا النمط من المكتبات الخاصة، إضافة إلى تلك الموجودة في مساجد الحاضرة، ناهيك عن الخزائن السلطانية، له دلالات واضحة على وفرة نسخ كثيرة للمؤلفات، خصوصا إذا علمنا بوجود سوق لبيع الكتب على حسب الإشارة التي أفادنا بها التنسي (ت 899 هـ / 1493م). (التنسي، م. 1985: 124)، لكن من دون أن يوافينا بمكان تواجد هذا السوق، والأمر الطبيعي يجعلنا نجزم بأن مكانه داخل المدينة، حيث يجتمع الناس لاقتناء لوازمهم الكتابية من القراطيس والأقلام والحبار والدواة، المداد وأدوات التسفير ناهيك عن الورق، والأمر الأساسي بيع النسخ، حيث يحظر السماسرة والوراقون لعرض متسخاتهم، ومن دون شك الناس الراغبين في اقتناء مثل هذه المعروضات، وغيرهم ممن دفعه الفضول في معاينة بضاعة هذا النوع من الأسواق، حيث ترتفع أصوات السماسرة بالنداء على أسعار المؤلفات. كل ما نعرفه عن سوق تلمسان هذا، أنه بيع فيه مصحف عثمان (حول هذا المصحف ينظر: التنسي، م. 1985: 123-125) بستة عشر درهما أرسل بها السلطان الزياني يغمراسن في أخذه بعدما أخبره أحدهم به ممن كان داخل السوق.

ب- مؤشرات المصادر حول مختلف فئات النساخ .

على أننا في هذا المقام، سوف نحاول جاهدين الكشف عن أهم النساخ التلمسانيين، ممن تعرضت مختلف لهم الكتب التاريخية وبشكل خاص كتب التراجم والطبقات والمناقب. ومن المؤكد أن هذه الحاضرة، قد

اشتهرت بها مجموعة من الشخصيات الموصوفة بحسن الخط ودقة الضبط، والجدول التالي يزودنا ببعض النماذج البارزة فترة ما بعد القرن 5هـ/11م.

الشخصية	تنقلاته	نوعية الخط وجودته	المصدر
أبو الحسن علي بن يحيى القلي (ت 594هـ / 1197م)	اشبيلية - قرطبة - مراكش	حسن الخط مشرقيه ومغريه	البغية، ص 101
أبو عبد الله محمد بن علي الهمداني وهرانسي الأصل (ت 601هـ / 1204م)	تلمسان - مراكش - اشبيلية	حسن الخط	البغية، ص 113/ الذيل والتكملة، السفر الثامن ص 339
أبو موسى بن تاحجلت الصنهاجي (ت 641هـ / 1243م)	تلمسان - الأندلس - مراكش	جيد الخط ضابطا	البغية، ص 102
محمد بن ابراهيم الغساني (ت 663هـ / 1264م)	تلمسان - آسفي	ذا خط حسن	البغية، ص 103
الدراج محمد بن عمر بن محمد بن عمر الأنصاري التلمساني (ت 693هـ / 1293م)	دخل الأندلس - سبته	حسن الخط جدا	صلة الصلة، ص 522
أبو زيد عبد الرحيم بن أبي العيش الخزرجي	تلمسان - فاس - الأندلس	خط بارع	البغية، ص 104/ الذيل والتكملة، السفر الثامن، ص 314
أبو عبد الله محمد الفزازي	قرطبة - مرسية - غرناطة - مراكش	حسن الخط	البغية، ص 113
أبو بكر بن خطاب الغافقي	مرسية - تلمسان	أبرع الكتاب خطا	البغية، ص 129
علي بن يحيى بن سعيد بن مسعود بن سهل الأنصاري التلمساني	اشبيلية - مراكش	حسن الخط على الطريقتين	الذيل والتكملة، السفر الثامن، ص 213

	الشرقية والغربية		
ابن مرزوق الخطيب (ت781هـ/ 1379 م)	تلمسان - فاس - الأندلس - تونس - القاهرة	بارع الخط أنيقه يكتب ويقيد	الإحاطة، ج3/ 104

إلى جانب هذه الفئة التي عرفت بحسن الخط، تطالعنا أيضا المصادر التاريخية بمجموعة معتبرة من النسخ، بل تؤكد لدينا على الأقل وجود ثلاث فئات رئيسية في المنطقة، نسخ مصحفون أي اختصوا بنسخ القرآن الكريم، نسخ اتخذوا من صنعة الوراقة مصدرا لرزقهم، إضافة إلى طبقة العلماء، وهي الطبقة التي كانت تنسخ الكتب للاستعمال الشخصي في الغالب وضمها للمكتبة الخاصة، التي يستعين بها الشيخ في مراجعاته العلمية (التصحيح والمقابلة، التأليف والتدريس).

5- نسخ مصحفون بتلمسان

يؤكد لنا ابن مرزوق الخطيب أن أحد أجداده، وهو أبو عبد الله الأكبر محمد بن أبي بكر بن مرزوق (ق6هـ/ 12م)، أنه كان مصحفيا ينسخ القرآن الكريم وخطه قريب من الخط الغطوسي، هذا النوع من الخطوط الذي يعتبر من مخترعات العدو الأندلسية. (المقري، أ. 1988: 151/3) ونظرا لجودت نسخ الجذ، كان الناس يتنافسون عليها. من جهة أخرى يؤكد ابن مرزوق على أن جده هذا، كان يقوم بعملية النسخ في حانوته الكائن بقيسارية تلمسان حيث كان يمارس فيه مهنة التجارة في حداثة سنه.

من خلال هذه المعطيات المهمة، يمكننا التأكيد على أن جد ابن مرزوق كان يبيع مصاحفه في ذلك الحانوت أيضا، حيث يكون قريب من زبائنه. وفي ذات السياق يشير لنا صاحب المناقب، على امتلاكه لربعة أربعة أرباع من مصحفه، لكنها ضاعت منه سنة 737هـ/ 1336م (ابن مرزوق، م. 2008: 148)، وهي السنة التي هاجم فيها المرينيون المدينة.

مرة أخرى، نجد ابن مرزوق الخطيب يخبرنا في سياق حديثه عن لقاء والده أحمد (ت 741هـ / 1340م)، بشيخ سماه بـ " الشيخ ابن حسني" وهو ينسخ مصحفا، من دون أن يعطينا أي إشارة يمكن من خلالها الكشف عن اسم هذا الناسخ، وكل ما نعرفه عنه أنه التقى به في دويرة من دور مدينة تلمسان ودارت بينهما مؤانسة، كان ذلك في أثناء حصار المرينين للمدينة ما بين سنتي (698-706هـ / 1298-1306م). (ابن مرزوق، م. 2008: 195).

على أن عملية نسخ المصاحف، لم تكن تستحوذ على اهتمام النساخ فقط، بل تجاوزته إلى أفراد الأسرة الزيانية الحاكمة، ونعني به على وجه الدقة السلطان الزياني أبو زيان محمد بن أبي هو (796-801هـ / 1393-1398م)، حيث ذكر التنسي في نظمه أنه نسخ نسخا من القرآن الكريم من دون أن يوافينا بعددها. هذا وقد أشار محقق كتاب التنسي محمود بوعياذ في مقدمة التحقيق، إلى وجود نسخة من المصحف بخط هذا السلطان الزياني، محفوظة بالخزانة العامة بالرباط تحت رقم (د 1330). (بوعياذ، م. 1985: 211 / هامش 534). كما أكد التنسي، على أن هذا السلطان قام أيضا بنسخ كتاب البخاري ونسخا من كتاب الشفا للقاضي عياض السبتي (ت 544 هـ / 1149م)، وقد قام هذا الأخير بوقفها على خزانته بالجامع الأعظم بتلمسان. (التنسي، م. 1985: 211).

لا يبدو أمرا غريبا، التأكيد على الأهمية القصوى التي كان يحظى به المصحف الشريف بين مختلف الأوساط التلمسانية، بداية من الطبقة الحاكمة وما دونها، وهو ما يفسر جانبا من تخصص فئة بعينها من النساخ في هذا المجال، ناهيك عن القيمة الربحية العالية التي يكسبها الناسخ من وراء ذلك، نظرا لارتفاع الطلب المتزايد على المصاحف حيث لا يكاد يخلو بيت منه، ليس في تلمسان فحسب بل في كافة أقطار الغرب الإسلامي الوسيط.

6- نساخ يتمعشون من صناعة الوراقة

من المعطيات التاريخية المهمة التي زودتنا بها مختلف المصادر التاريخية، وجود شخصيات تلمسانية اتخذت من صناعة الوراقة موردا لرزقها، حيث تمكننا من رصد ثلاث شخصيات.

- أبو الربيع سليمان بن عبد الرحمان بن المعز الصنهاجي المعروف بالتمساني (ت 579هـ / 1183م): من الزهاد ذكره صاحب التشوف (ت 627هـ / 1228م) على أنه كان وثاقا بمدينة سلا التي كان يسكنها (التادلي، ي. 2006: 227)، وهو ما أكد عليه يحيى بن خلدون بقوله "يحترف بالنسخ"، ولا يقبل على النسخة التي ينسخها أكثر من حقها وإذا أعطاه أحدهم أكثر من ذلك ردّه إليه. (يحيى بن خلدون، ي. 1980: 108)

- أبو عبد الله محمد بن عبد الحق اليعمري التلمساني يقال له البطوئي تلمساني ندرومي الأصل (ت 625هـ / 1227م): وصفه صاحب الذيل والتكملة بكونه "جماعة للكتب النادرة" التي كانت تزخر بها خزائنه الخاصة، وقد اجتمع له بذلك ما لم يجتمع لغيره من أبناء عصره، كما يؤكد ابن عبد الملك على أنه كان يبيع الكتب وزاد على ذلك بتأكيده على ارتفاع ثمنها. (ابن عبد الملك، م. 1984: 318). من الواضح أن سبب غلاء منتسخاته ربما يعود أساسا إلى تميزها ببراعة الخط الذي عرف به ابن عبد الحق وكذا دقة الضبط واعتناؤه بتصحيحها، وهي مؤهلات تزيد من نفاسة النسخة خاصة إذا كانت من نواذر الكتب.

- أبو عبد الله بن البلد (ق 7هـ / 13م): من المعاصرين لأبي عبد الله محمد بن أبي بكر بن مرزوق (ت 681هـ / 1282م) جد الخطيب ومن الملازمين له، وقد كان يتعيش بالنسخ، على حسب الإفادة التي أدلى بها ابن مرزوق، أين أشار إلى امتلاكه لنسخة من الشفا وعليها خطه إلى جانب

خط جده، لكن يستشف من كلامه أن هذه النسخة يجهل مصيرها بل يتأسف على ذلك. (ابن مرزوق، م. 2008: 185).

7- فئة النساخ الشيوخ:

إضافة إلى الأهمية القصوى التي تحتلها الكتب المصدريّة على اختلاف أنماطها في مثل هذه المواضيع، فإن مطالعة خواتيم المخطوطات، خصوصا تلك التي عليها توقعات الناسخ، تكشف لنا عن مجموعة كبيرة من النساخ الذين حفظوا لنا التراث العلمي للغرب الإسلامي ومن هؤلاء نجد مساهمة عدد كبير من العلماء في نسخ بعض المؤلفات سواء كانوا هم أصحابها أو غيرهم نذكر منهم .

- أبو عبد الله محمد بن عبد الرحمان التجيبي التلمساني (ت 610هـ/ 1213م): صاحب البرنامج، " كان حسن الخط والتقيد"، يبدو أن هذه الشخصية التي شدّت الرحال إلى المشرق، قد عادت إلى العدة المغربية وبالضبط إلى تلمسان حيث أقام بها آخر أيامه. قد قام بنسخ عدد كبير من المؤلفات التي درسها على شيوخه المشرق وبشكل خاص تلك التي قرأها على شيخه الحافظ أبي طاهر أحمد بن محمد السلفي (ت 576هـ/ 1180م)، وبالعودة إلى كلام التجيبي نجده يخبر شيخه على أنه كتب عنه كثيرا من الأسفار ومئين من الأجزاء. (ابن عبد الملك، م. 1973: 356-357). منها نسخة مقابلة من كتاب غريب القرآن لأبي بكر محمد بن عزيز السجستاني (ت حوالي 330هـ/ 941م). (التجيبي، م. 2011: 276-277). ونسخة مقابلة أيضا من كتاب مشتهبه النسبة للحافظ أبي محمد عبد الغني بن سعيد الأزدي (ت 409هـ/ 1018م). (التجيبي، م. 2011: 359).

- أبو إسحاق إبراهيم بن يخلف بن عبد السلام التنسي (ت بعد 692هـ/ 1292م): جدّ لأم ابن مرزوق الخطيب ذكر عنه أنه كان ينسخ في منزله. (ابن مرزوق، م. 2008: 151).
- الإمام السنوسي محمد بن يوسف بن عمر بن شعيب (ت 895هـ/ 1489م): كان من المشتغلين بالنسخ ليلا على حسب ما أفادنا به ابن مريم التلمساني. (ابن مريم، م. 2010: 326). الأمر الذي يظهر أن الوقت الأنسب للنسخ بالنسبة لهذه الفئة ليلا، حيث يتسنى لهم التفرغ للتأليف والنسخ، إضافة إلى المقابلة والتصحيح.
- عبد الجليل محمد بن عثمان الزروالي الراشدي، نسخ فهرسة شيخه الفقيه عبد الرحمن الثعالبي (ت 875هـ / 1470م)، كان ذلك سنة 873هـ/ 1468م، وختمها بمقطع يطلب فيه إجازة الشيخ. (الثعالبي، ع. 2005: 80).
- أبو محمد جلول بن عبد الرحمن بن أحمد بن جلول، نسخ كتاب نظم الدرّ لشيخه الحافظ التنسي (ت 899هـ / 1493م)، سنة 885هـ/ 1480م، من شهر 3 صفر، واحدة من النسخ التي اعتمدها محقق كتاب نظم الدرّ محمود بوعباد، وقد قام بتقديم وصف دقيق لها. كما أشار على أنها من محفوظات الخزانة الملكية بالرباط تحمل رقم (1072). (بوعباد، م. 1985).
- أحمد بن محمد المقرئ التلمساني (ت 1041هـ/ 1631م) صاحب نفع الطيب، نسخ أيضا كتاب نظم الدرّ سنة 1008هـ/ 1599م، نقلها من النسخة الأم التي نسخها التنسي بخط يده. وهي بذلك تعدّ من أنفس نسخ كتاب التنسي الموجودة، التي اعتمدها بوعباد في تحقيقه للكتاب، وهي كذلك من محفوظات الخزانة الملكية بالرباط تحمل رقم (1072). (بوعباد، م. 1985: 91).

• ملحوظات ختامية.

من خلال تتبعنا للمسار العام الذي طبعت به صناعة الوراقة في المغرب الأوسط خلال الفترة الوسيطة، يمكن تسجيل نقطتين أساسيتين.

عرفت حرفة الوراقة في منطقة المغرب الأوسط تناميا ملحوظا، كغيرها من أقطار الغرب الإسلامي تتحكم فيها مجموعة من الظروف، أهمها انتشار الورق وسهولة الحصول عليه، لكن شحّ المادة الخبزية المتعلقة بذلك، جعل من عملية التنقيب عن نساخ المغرب الأوسط أمرا صعبا، ناهيك عن معرفة منتسختاتهم وأماكن النسخ والمدة التي يستغرقونها في نسخ المؤلفات وأجرة الناسخ ... الخ.

من المؤكد أن الإشارات القليلة حول هذا النوع من المهن الفكرية في المنطقة، لا يعكس الدور الكبير الذي لعبته هذه الأخيرة في انتشار المؤلفات بين الأوساط العلمية، الأمر الذي سوف يكون له الأثر الايجابي في حفظ التراث العلمي المحلي من الضياع، الذي وصلنا اليوم محلى بخطوطهم المتباينة بين البراعة والحسن وحتى ما هو دونهما. وفي الأخير، لا يخفى على أحد أن طرق أبواب مثل هذه المواضيع يحتاج إلى جهود مضاعفة ومركزة، حتى نتمكن من إعطاء صورة واضحة مبنية على أدلة ونصوص تاريخية، تدعم ما تم تناوله في ثنايا هذه الورقة.

• قائمة المصادر والمراجع المعتمدة.

1/ قائمة المصادر :

- الإدريسي، أبو عبد الله بن محمد. (2010). نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، ط1. القاهرة: مكتبة الثقافة الدينية.
- الاشيلي، بكر بن إبراهيم. (1999). التيسير في صناعة التفسير، تحقيق السعيد بن موسى، دط. الدار البيضاء: مطبعة النجاح الجديدة.
- التادلي، ابن الزيات يوسف بن يحيى. (2006). التشوف إلى رجال التصوف، تحقيق علي عمر، ط1. القاهرة: مكتبة الثقافة الدينية.
- التججي، أبو عبد الله محمد بن عبد الرحمن. (2011). البرنامج، تحقيق الحسن إد سعيد، دط. المغرب: منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية.
- التنسي، محمد بن عبد الله. (1985). نظم الدرر والعقيان، تحقيق محمود بوعباد، دط. الجزائر: المؤسسة الوطنية للكتاب.
- ابن الخطيب السلماني، لسان الدين أبو عبد الله محمد بن عبد الله. (1975). الإحاطة في أخبار غرناطة، تحقيق محمد عبد الله عنان، ط1. مكتبة الخانجي: القاهرة.
- ابن خلدون، أبو زيد عبد الرحمن. (2004). العمران، تحقيق خليل شحادة، دط. بيروت: دار الفكر.
- ابن عبد الملك المراكشي، محمد بن محمد. (1973). الذيل والتكملة، الجزء السادس، تحقيق إحسان عباس، ط1. بيروت: دار الثقافة. / (1984). الذيل والتكملة، السفر الثامن، تحقيق محمد بن شريفة، دط. المغرب: أكاديمية المملكة المغربية.
- عياض، أبو الفضل بن موسى اليحصبي السيتي. (1970). الالماع إلى معرفة أصول الرواية وتقييد السماع، تحقيق السيد أحمد صقر، دط. القاهرة: مكتبة التراث، تونس: المكتبة العتيقة.
- الغبريني، أبو العباس أحمد. (1981). عنوان الدراية، تحقيق رابح بونار، دط. الجزائر: الشركة الوطنية للنشر والتوزيع.
- القلوسسي، أبو بكر بن محمد. (2007). تحف الخواص (في صنعة الأمددة والأصبغ والأذهان)، تحقيق حسام أحمد مختار العبادي، دط. منشورات مكتبة الإسكندرية: الإسكندرية.
- ابن قنفذ القسنطيني، أبو العباس أحمد بن الحسين. (1965). أنس الفقير وعز الحقيير، تحقيق محمد الفاسي وأدولف فور، دط. الرباط: المركز الجامعي للبحث العلمي.
- الفارسية في مبادئ الدولة الحفصية، تحقيق محمد الشاذلي وعبد المجيد التركي، دط. تونس: الدار التونسية.

- ابن مرزوق الخطيب، أبو عبد الله محمد. (2008). المناقب، تحقيق سلوى الزاهي، ط1. المملكة المغربية: منشورات وزارة الأوقاف.
- ابن مريم الملقبي، محمد بن أحمد. (2010). البستان في ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان، تحقيق محمد يوسف القاضي، ط1. القاهرة: مكتبة الثقافة الدينية.
- المقديسي، شمس الدين أبو عبد الله محمد. (1987). أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم. بيروت: دار الكتب العلمية.
- المقرئ، أبو العباس أحمد بن محمد. (1988). نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، تحقيق إحسان عباس، دط. بيروت: دار صادر.
- النباهي، أبو الحسن علي بن عبد الله الجذامي. (2006). المرقبة العليا فيمن يستحق القضاء والفتيا، تحقيق صلاح الدين الهواري، ط1. بيروت: المكتبة العصرية.
- ابن النديم، أبو الفرج محمد بن إسحاق. (2007). الفهرست، تحقيق مصطفى الشويخي، دط. الجزائر: دار الطباعة الشعبية للجيش.
- الونشريسي، أبو العباس أحمد بن يحيى. (1981). المعيار العرب والجامع المغرب عن فتاوى علماء افريقية والأندلس، تحقيق محمد حجي وآخرون، دط. بيروت: دار الغرب الإسلامي.
- يحيى بن خلدون، أبو زكريا يحيى. (1980). بغية الرواد في ذكر الملوك من بني عبد الواد، تحقيق عبد الحميد حاجيات، دط. الجزائر: المكتبة الوطنية.

ب/ قائمة المراجع

- الأنصاري فريدة. (2009). الوراقون الأندلسيون. مجلة التراث العربي، دمشق، (113)، ص ص (195-210).
- بحاز إبراهيم بكير. (1993). الدولة الرستمية دراسة في الأوضاع الاقتصادية والحياة الفكرية، ط2. الجزائر: ديوان المطبوعات الجامعية.
- بوعبيد محمود. (1985). مقدمة تحقيق كتاب نظم الدر والعقيان للتنسي، دط. الجزائر: المؤسسة الوطنية للكتاب.
- الجبوري يحيى وهيب. (1994). الخط والكتابة في الحضارة العربية، ط1. بيروت: دار الغرب الإسلامي.
- زيات حبيب. (1992). " الورق والوراقون في الإسلام ". اعتناء (غادة يوسف خوري)، الوراقة وصناعة، ط1. الكتابة ومعجم السفن، بيروت: دار الحمراء. ص ص (7-40).
- ساحلي آسيا. (2009). إنتاج وانتقال المعارف التاريخية في المغرب الأوسط. رسالة غير منشورة لنيل شهادة الماجستير (التاريخ الوسيط)، جامعة الأمير عبد القادر، قسنطينة.

- سحر السيد عبد العزيز سالم. (1995). الحصن الأمامي لشرق الأندلس منذ الفتح الإسلامي حتى سقوط غرناطة، دط. الإسكندرية: مؤسسة شباب الجامعة.
- عمارة علاوة. (2004). "الكتابة التاريخية في الغرب الإسلامي الوسيط". مجلة التاريخ العربي، المغرب، (32)، ص ص (333-369).
- فيلالي عبد العزيز. (2002). مدينة قسنطينة في العصر الوسيط، دط. قسنطينة: دار البعث.
- الكنساني أحمد بوزيد. (1998). "من تاريخ الوراق بمنطقة السوس". مجلة كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الرباط، (21-22)، ص ص (97-142).
- مسعد سامية مصطفى. (2000). الوراق والوراقون في الأندلس من عصر الخلافة حتى نهاية عصر الموحدين، دط. مصر: عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية.
- المشوخي عابد سليمان. (2003). "أخلاقيات مهنة الوراق في الحضارة الإسلامية". مجلة جامعة الملك سعود، السعودية، مج 15، الآداب (2)، ص ص (417-478).
- المنوني محمد. (1991). تاريخ الوراق المغربية، ط1. الرباط: كلية الآداب جامعة محمد الخامس.
- النملة علي إبراهيم. (1995). الوراق وأشهر أعلام الوراقين، دط. الرياض: مطبوعات مكتبة الملك فهد الوطنية.
- الكنساني أحمد بوزيد. (1998). من تاريخ الوراق بمنطقة السوس. مجلة كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الرباط، (21-22)، ص ص (97-142).

